جلال التفصيل القرآني

□□ ليس عجيباً أن تنزع بعض الدراسات القرآنية المعاصرة إلى تأكيد وحدة الموضوع في دراسة جوانب النص القرآني بشكل لم يتعرض له القدامى من بعيد أو قريب باستثناء بعض الإبداعات النادرة والمهمة التي جاءت على أيدي أفذاذ من العلماء القلائل أمثال : ابن زياد النيسابوري ، والفخر الرازي ، وبرهان الدين البقاعي . ويبدو أن هذا المنزع جاء نتيجة طبيعية لاتساع آفاق المعارف والعلوم التي فتحت البصائر أمام أفهام جديدة لكتاب الله تصديقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

مفهوم الوحدة الموضوعية :

وإبراز وحدة الموضوع في بنية الصرح القرآني العظيم إنما تعني في مفهومها الشامل أن جميع موضوعات القرآن تكوِّن فيما بينها نسيجاً محكماً لا يمكن لجميع تقنيات وأجهزة العلم الحديث أن تحيط بأحكامه وأسراره كاملة ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (الكهف : ١٠٩) أما المفهوم الطبيعي لمصطلح الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فإنما يعني أن كل موضوع ذُكر موزعاً ومتناثراً على مختلف السُّور يكون عند الجمع وحدة متكاملة لا تنافر فيها .

أسرار التنزيل القرآني وإعجازه

ومن المعلوم أن الله تبارك وتعالى أنزل كتابه مفرقاً منجماً لحكمٍ وأسرار عظيمة أهمها ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (الإسراء : ١٠٦) .

يقول الإمام الواحدي في شرح هذه الآية في كتابه أسباب النزول : « فرَّق الله تنزيل القرآن فكان بين أوَّله وآخره عشرون أو نحو عشرين سنة أنزله قرآناً عظيماً وذكراً حكيماً وحبلاً ممدوداً وعهداً معهوداً وظلاً عميماً وصراطاً مستقيماً فيه معجزات باهرة وآيات ظاهرة وحجج صادقة ودلالات ناطقة ، دحض به حجج المبطلين ، وردَّ به كيد الكائدين ، وأيَّد به الإسلام والدين .. » فإذا كان استغراق هذا الزمن كافياً لإقامة دعائم العقيدة والشريعة في بيئتي مكة والمدينة باكتمال عناصر الدين وهديه ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) فإن ترتيب آيات النزول ضمن سور القرآن المعلومة لدينا اليوم آخذة بأعناق بعضها يعتبر من الوجهة المنطقية أروع شكل للإعجاز والشمول إذ لا يمكن للعقل أن يستوعب إمكانية القدرة على تنسيق كتاب تتنزل موضوعاته متفرقة على امتداد أكثر من عشرين سنة ثم تجمَّع ثانية متسلسلة في صورة جديدة ضمن سور ووحدات فكرية تقرؤها فلا تحس بأي انخرام أو تفكك في مجالي المبنى والمعنى .

إن هذا الأمر المدهش يمر به القارىء العادي دون اهتزاز يذكر رغم أن القرآن يلفت أنظارنا مصرحاً : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس : ٣٧) □□

محمد بدر الدين [بن حسن]